1

«محمد علي» وحملة فريزر ومنبحة المماليك

قبل أن نتحدث عن مذبحة المماليك نتوقف عند حدث هام يعتبر من أهم ركائز استقرار محمد علي في حكم مصر.. وسبق مذبحة المماليك زمنياً.. وكان بمثابة الحجة التي دعا من خلالها محمد علي فلول المماليك في مصر للاجتماع به في القلعة.. ثم حدث منه ما حدث..

نتحدث عن «الحملة الإنجليزية على مصر»سنة ١٨١١ أو ما تُعرف باسم..

حملة فريزر على مصر

كانت إنجلترا تسعى بكل السُبل لإنهاء حكم محمد علي في مصر.. وإعادة المماليك للسلطة تحت الوصاية البريطانية.. وحاول الإنجليز انتهاز فرصة الصراع بين الوالي محمد علي والمماليك وضعف الجبهة الداخلية.. فاتفقوا مع «محمد بك الألفي» وهو كما قلنا كان أحد زعماء المماليك على أن يؤيدها وينسق التعاون معها من أجل العمل على ذلك في مقابل أن تكفل إنجلترا للمماليك الاستيلاء على مقاليد البلاد.. لكن الألفي مات قبل وصول الحملة العسكرية إلى مصر بقيادة الجنرال فريزر في الأول من مارس ١٨٠٧ .

وهكذا بدأت حملة فريزر.. أو«الحرب الإنجليزية المصرية الأولى» كما تُسمى في بعض كتب التاريخ.. ودارت رحى الحرب بين أعوام «١٨٠٧ ـ ١٨٠٩» بين قوات محمد علي باشا والمصريين من ناحية.. والقوات البريطانية تعاونها الدولة العثمانية كجزء من تداعيات الحروب النابليونية من ناحيةٍ أخرى.

وكان وقتها قد مضى عامان فقط على تولي محمد علي حكم مصر.. وكانت الخطة أن يزحف المماليك إلى القاهرة ليحتلوها.. والإنجليز يحتلون بأسطولهم موانئ مصر.. والبداية كان ثغر رشيد.. بعده يزحفون إلى الدلتا ويحتلون القاهرة لإسقاط حكم محمد علي..

DAYS OF MOHAMED ALI

وكان «الجنرال فريزر» بالإسكندرية قد تلقي تقريراً قبل زحفه بحملته من قنصل إنجلترا في رشيد عن حالة مصر وما بها من قوات مما جعله يزحف براً إلى رشيد لاحتلالها واتخاذها قاعدة حربية لقواته.. وكلف القائد ويكوب بهذه المهمة العسكرية.. وكان معه ألف جندي تحركوا من الإسكندرية إلى رشيد..

واستطاعت الحملة في البداية الاستيلاء على الإسكندرية في مارس ١٨٠٧ ولكنها لم تنجح في الاستيلاء على رشيد نتيجة لمقاومة أهالي رشيد بقيادة محافظها «علي بك السلانكي» للحملة الإنجليزية.. وقواته المكونة فقط من ٧٠٠ جندي.. وعزم على مقاومة الإنجليز.. واستنفر الشيخ «حسن كيريت» الأهالي للمقاومة الشعبية.. فأمر بإبعاد المراكب المصرية من أمام شاطئ النيل برشيد إلى البر الشرقي المقابل عند الجزيرة الخضراء وبرج مغيزل بمركز مطوبس.. وكان الهدف منع الأهالي من ركوبها والفرار من المدينة حتى لا يجد رجال حاميته وسيلة للارتداد أو الاستسلام أو الانسحاب كما فعلت حامية الإسكندرية من قبل.. وأصبحت الحامية بين الأهالي متوارية بالمنازل داخل مدينة رشيد.. والبحر من ورائهم والعدو أمامهم.. ولا مناص إلا القتال والمقاومة.. وأمرهم بعدم التحرك أو إطلاق النار إلا بعد صدور إشارة متفق عليها.. فتقدم الإنجليز ولم يجدوا أي مقاومة.. فاعتقدوا أن المدينة ستستسلم كما فعلت حامية الإسكندرية.. فدخلوا شوارع المدينة مطمئنين.. وأخذوا يستريحون بعد السير في الرمال من الإسكندرية إلى رشيد.. وانتشروا في شوارع المدينة والأسواق للعثور على أماكن يلجئون إليها ويستريحون فيها.. وما كادوا يستريحون حتى انطلق نداء الآذان بأمر السلانكي من فوق مئذنة سيدي زغلول مردداً:

«الله أكبر.. حي على الجهاد»..

فانهالت النيران من الأهالي وأفراد حامية رشيد من نوافذ المنازل وأسطحها.. فقتل جنود وضباط من الحملة وهرب من بقي حيا وبلغ عدد قتلي الإنجليز ١٧٠ قتيلاً و٢٥٠ جريحاً و١٢٠ أسيراً لدي حامية رشيد.

وإزاء هذا الوضع المتردي بالنسبة له ولقواته أرسل فريزر إلى المماليك يطلب منهم المساعدة ولكنهم لم يستطيعوا مساعدته بعد أن تفرقت كلمتهم.. ومات زعيمهم محمد الألفي.. فرأى فريزر أنه من العبث مواصلة القتال فتحصن بالإسكندرية.. وأرسل إلى محمد علي يطلب الصلح في مقابل أن يجلو عن الإسكندرية.. في تلك الأثناء كان محمد علي يستعد للزحف على الإسكندرية.. وسار بجيشه من معسكره في إمبابة متوجها إلى الرحمانية ومنها إلى دمنهور في ١٢ أغسطس عام ١٨٠٧وهناك التقى بالجنرال «شربروك» الذي فوضه فريز لإبرام الصلح بين الطرفين المصري والبريطاني..

معاهدة دمنهور

وبعد مفاوضات قصيرة عقد الطرفان معاهدة دمنهور في ١٤ سبتمبر عام ١٨٠٧ والتي نصت على ما يلي:[1]

- جلاء القوات البريطانية عن الإسكندرية في مدى عشرة أيام من التوقيع على المعاهدة..
- إطلاق سراح أسرى الحرب الإنجليز..
- صدور عفو عام لسكان الإسكندرية.

وتم جلاء القوات البريطانية بالفعل في ١٩ سبتمبر سنة ١٨٠٧ وضمت الإسكندرية إلى محمد علي بفرمان سلطاني بعد أن كانت تتبع مباشرة السلطان وحاكمها يعين من قبله مباشرة.. ثم أقلعت السفن البريطانية بما تبقى من جنود الحملة إلى صقلية..

❖❖❖

(١) أصبح يوم ١٩ سبتمبر آخر أيام إجلاء بقايا الإنجليز عن دمنهور هو العيد القومي لمحافظة البحيرة.

DAYS OF MOHAMED ALI

مذبحة المماليك[1]

مذبحة القلعة.. أو مذبحة المماليك هي واحدة من أشهر الأحداث في التاريخ المصري.. وأكثرها مكراً.. ودهاء.. دبرها محمد علي باشا للتخلص من أعدائه من المماليك.. ويعلق أحد المؤرخين على مذبحة القلعة فيقول:

«لقد ذبح «محمد علي» من المماليك في القلعة ما لا يقل عن ١٢٠٠ مملوك.. مع أنه قد سبق له وأمنهم على حياتهم بأغلظ العهود والمواثيق» ولكننا نعلق هنا على تلميحه بخيانة محمد علي لمواثيقه وعهوده التي قطعها على نفسه للمماليك بأنها«السياسة» وضرورات الحكم.. فلو لم يسبقهم محمد علي في تصفيتهم والقضاء عليهم لسبقوه هم وقضوا عليه.

الخلاف حول عدد القتلى

كما أن هناك خلاف بين ما ذُكِرَ في معظم كتب التاريخ حول عدد القتلى في مذبحة القلعة.. ففي حين يقول المؤرخ السابق الإشارة إليه أن عددهم كان ١٢٠٠ قتيل.. نرى آخرين يذكرون أن الرقم كان حوالي خمسمائة فقط من رؤوس المماليك وأعيانهم..

عموماً أدار ابنه «إبراهيم باشا» مذبحة أخري لبعض من فلول المماليك الآخرين الهاربين إلى الصعيد وذلك بعد سنة من مذبحة الأولى..

ووقعت أحداثها يوم ١ مارس من عام ١٨١١.

(١) نحكيها من واقع ما جاء في كتاب "تاريخ عصر المماليك" لعبد الرحمن الرافعي.

Le Massacre des Mamelukes dans la Citadelle du Caire
by Horace Vernet, 1849

كيف خطط «محمد علي» للمذبحة؟

يُقال في بعض المصادر التاريخية أن فكرة وتخطيط مذبحة المماليك كان صاحب الفضل فيها والتخطيط لها هو «لاظوغلي باشا»[1]

وكان المماليك في هذا الوقت يرون أنهم الأحق بحكم مصر.. وكانوا دائمي التمرد والإزعاج لمحمد علي ولم تنفع معهم محاولات الصلح والإرضاء بالأموال التي قام بها محمد علي حتى أنه أراد استرضاء «مراد بك» زعيم المماليك وأعطاه حكم الوجه القبلي مقابل مبلغ من المال واشترط عليه عدم مساعدة المماليك

(١) ترجمة كاملة للشخصية في فصل رجال حول محمد علي.

DAYS OF MOHAMED ALI

للإنجليز.. ولكن لم يجدي هذا معهم.. في وقت كان فيه محمد علي يريد الانفراد بحكم مصر فكان علية التخلص من الزعامة الشعبية والجنود الألبانيين الذين حاولوا قتله من قبل سنة ١٨١٥ .

وجاءت الفرصة لمحمد علي عندما أرسل إليه السلطان العثماني يطلب منه تجهيز جيوشه والخروج لمحاربة الحركة الوهابية في شبة الجزيرة العربية..

وهنا كان أول ظهور للوهابيين في مشوار محمد علي.. وكانت أول الأخبار الواردة إليه عنهم بالشكل التالي كما يصفه الرافعي:

(وفي يوم الأربعاء ١٥ شهر رجب الفرد سنة ١٢٢٠ هـ - ٩ أكتوبر ١٨٠٥ م برز طاهر باشا الذاهب إلى البلاد الحجازية بعساكره إلى خارج باب النصر.. وفيه وردت الأخبار بأن الوهابيين استولوا على المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم بعد حصارها نحو سنة ونصف من غير حرب بل تحلقوا حولها وقطعوا عنها الوارد وبلغ أردب الحنطة بها مائة ريال فرانسة فلما اشتد بهم الضيق سلموها ودخلها الوهابيون ولم يحدثوا بها حدثًا غير منع المنكرات وشرب التنباك في الأسواق وهدم القباب ما عدا قبة الرسول صلى الله عليه وسلم..)

وعندما جاءته أوامر الباب العالي بالسفر إلى هناك لقمع الوهابيين في البداية استشعر محمد علي القلق حيث أنه إذا خرج جيشه للحرب امتثالاً لأوامر الخلافة

DAYS OF MOHAMED ALI

العثمانية فسيتركه وحيداً دون حماية.. وعندها سيفكر المماليك في انتهاز هذه الفرصة والقضاء عليه..

لوحة مرسومة بريشة الفنان الفرنسي (جان ليون جيروم) الذي عاش بالقاهرة بعد ٢٠ سنة من المذبحة واللوحة تصور رؤوس البكوات المماليك على باب مسجد الحسنين..

لذلك فكر محمد علي في أن يحول مخاوفه إلى فرصة للقضاء على هؤلاء المماليك.. وأرسل إلى أعيان المماليك وزعماءهم يدعوهم للحضور إلى القلعة بحجة أنه سوف يقيم احتفالاً كبيراً بمناسبة تنصيب ابنه «طوسون» على رأس حملة متجهة إلى الحجاز لمحاربة الوهابيين.. وفي نهاية الحفل سيقوم الجميع بتوديع الجيش.. وذهبت الدعوة إلى المماليك في كل حدبٍ وصوب من أركان مصر من مشرقها إلى مغربها.. ولم يشك زعماء المماليك في نية محمد علي بل استعدوا وارتدوا ملابسهم الرسمية بكامل زينتهم وجاءوا إلى القلعة راكبين على أحصنتهم استعداداً للحفل وهم لا يعلمون مصيرهم.

وفي يوم الحفل الذي وافق الأول من مارس من سنة «١٨١١» كان عدد المدعوين حينها يزيد على عشرة آلاف شخص من كبار القوم ومختلف الطوائف.. وسار

الاحتفال على ما كان عليه الحال حينها في مثل هذه المناسبات من طعام وغناء إلى أن نادى المنادى برحيل الموكب.. فعزفت الموسيقى وانتظم قرع الطبول..

وبعد أن انتهى الحفل الفاخر دعاهم محمد علي لتوديع موكب الجيش الخارج للحرب.. وكان في مقدمة الموكب جيش كبير من الأحصنة يركبها رجال محمد علي بقيادة ابنه «إبراهيم بك»

وسار المماليك في مؤخرة صفوف الجيش الخارج من ناحية «باب العِزب».. يتقدمهم جنود محمد علي ومن ورائهم يسير الفرسان والمشاة وعلى إثرهم كبار المدعوين من أرباب المناصب المختلفة.

وكانت أرضية القلعة وقتها غير ممهدة.. ويصعُب السير عليها.. وكانت أيضاً الرؤية صعبة ومحجوبة عن أمراء المماليك الذين كان يسير أمامهم جيش كبير من الرجال.

وبعد أن خرجت مقدمة الجيش من «باب العزب» ارتج الباب الكبير وأُغلقت الأبواب من الخارج في وجه المماليك واستدار الحراس الذين كانوا يولون المماليك ظهورهم وواجهوهم.. وانطلقت رصاصة في السماء لم ينتبه لها المماليك لكنها كانت الإشارة المتفق عليها بين محمد علي ورجاله.... وتحول جنود محمد علي بسرعة عن الطريق.. وتسلقوا الصخور على الجانبين.. وراحوا يمطرون المماليك بوابل من الرصاص.

أخذت المفاجأة المماليك وساد بينهم الهرج والفوضى.. وحاولوا الفرار.. ولكن كانت بنادق الجنود تحصدهم في كل مكان.. ثم انهالت الطلقات مدوية من أمامهم ومن خلفهم ومن فوقهم تحصد أرواحهم جميعاً بلا رحمة.. ومن نجا منهم من الرصاص فقد ذُبح بوحشية.. حتى امتلأ فناء القلعة بالجثث.

قصة المملوك الهارب وتعدد الروايات

يُروى أن بعض هؤلاء المماليك استطاع الهرب بالقفز من أعلى أسوار القلعة راكبين خيولهم.. وهرب بعضهم إلى صعيد مصر وكان من بينهم «إبراهيم بك» الذي هرب إلى السودان ثم عاد بعدها بحوالي ثلاث سنوات ليُقتل بخدعة شبيهة بمذبحة القلعة.

ويُقالُ أنه لم ينج من هذه المذبحة سوى مملوك اسمه «أمين بك» هرب بحصانه من فوق أسوار القلعة.. ويقال إنه فر متخفيا إلى سوريا ومات هناك بعد هذه الحادثة بعدة سنوات.

وقيل في روايةٍ أخرى أن هذا المملوك كان اسمه «مراد بك» وقيل أنه كان في مؤخرة الصفوف.. ولما شعر ببداية إطلاق النار قرر الفرار إلا أنه لم يكن أمامه سوى سور القلعة لذلك أخذ فرسه وقفز به من فوق سور القلعة وسقط حتى اقترب من الأرض قفز من فوق حصانه ليتركه يلقي مصيره بينما نجى هو واتجه بعدها إلى بلاد الشام.

أما الرواية الثانية لهروب نفس المملوك أياً كان اسمه فتحكي أنه جاء متأخراً إلى الحفل فوجد باب القلعة قد أُغلِقَ فشعر بالمكيدة فأخذ فرسه وهرب به إلى بلاد الشام.. بينما كان هناك مملوك آخر يدعى أحمد بك لم يحضر الحفلة بسبب انشغاله في أحد القرى بالتالي لم ينج سوي هذين المملوكين.

لماذا باب «العِزب»[1]؟

والسر وراء اختيار باب «العزب» لتكون مسرحاً لمذبحة القلعة هو أن الطريق الذي يؤدى إلى باب العزب ما هو إلا ممر صخري منحدر تحيط به الصخور على الجانبين.. حيث لا مخرج ولا مهرب ولا مفر..

(١) أحد الأبواب الرئيسية المؤدية إلى القلعة آنذاك.. والتي كانت تشرف على طريق رئيسي اعتادت جيوش المماليك الخروج منه عند الحروب.

DAYS OF MOHAMED ALI

والأمر في مجمله كان خُدعةً انطلت على المماليك ونفذتها مجموعة من جنود محمد علي بإحكام..

موقف المصريين من المذبحة

وصل خبر تلك المذبحة إلى الجماهير المحتشدة في الشوارع لمشاهدة الموكب فسرى الذعر بينهم.. وتفرق الناس.. وأُقفِلَت الدكاكين والأسواق.. وهرع الجميع إلى بيوتهم.. وخلت الشوارع والطرقات من المارة.. وسرعان ما انتشرت جماعات من الجنود الأرناؤوط في أنحاء القاهرة يفتكون بكل من يلقونه من المماليك وأتباعهم.. ويقتحمون بيوتهم فينهبون ما تصل إليه أيديهم.. وتجاوزوا بالقتل والنهب إلى البيوت المجاورة.

وكُثر القتل.. واستمر النهب.. وسادت الفوضى ثلاثة أيام.. قُتل خلالها نحو ألف من أُسر وعائلات المماليك ونُهب خمسمائة بيت.. ولم يتوقف هذا إلا بعد أن نزل محمد علي بنفسه إلى شوارع المدينة.. وتَمكنَ من السيطرة على جنوده وأعاد الانضباط.. وهكذا استطاع محمد علي الانفراد بالحكم.

❖❖❖